ان رواية ولو صغيرة، تجلى فيها جمال الفن فامتزجت بأجزاء النفس لخير من المئات من أمثال تلك السلع التافهة التي يتاجر فيها بعض المشعوذين... ولا شك أن قيمة الرواية هي فيما تتضمنه من الفائدة، وتتوخاه من العبرة»(٢١).

ان هذه الآراء، وتلك المواقف، من فن الرواية، تكتسب أهمية بالغة، وهي تفسر الإخلاص الكبير الذي أبداه بيدس لفن الرواية؛ مما جعله ينجز فيه العديد من الأعمال التي سبق ذكرها.

٢ ــ قصص المجموعة: اذا نظر الدارس المعاصر لقصص هذه المجموعة، من خلال المفاهيم النقدية الحديثة التي وصل اليها نقد القصة القصيرة، والبنى الفنية التي حققها هذا الفن، فانه ــ لا محالة ــ مصاب بدهشة كبيرة لتخلف مستواها الفني، وخلطها بين أشكال متعددة من التعبير. لذلك فان قارىء هذه المجموعة، وناقدها، عليه أن يتذكر دوماً أثناء سياحته فيها، أنها كتبت عام ١٩٢٤، أي قبل أكثر من نصف قرن؛ حيث كانت القصة القصيرة فناً جديداً كل الجدة على الأدب العربي، لم تُؤصَّل قواعده الفنية بعد، وكل عمل أدبي يقرأ معزولاً عن سياقه التاريخي، لا يبدو شديد التأثير، كما قال فرانك أوكونور عن «معطف» غوغول. ضمن السياق التاريخي البعيد عن مفاهيمنا النقدية المعاصرة، يلاحظ أن خليل بيدس، كان لا يفرق بين الرواية والقصة القصيرة، لذلك فهو يسمي مجموعته «أدبية فنية روائية»، أو بمعنى آخر، فان القصة والرواية كان لهما، عند كتاب تلك المرحلة، المفهوم نفسه، رغم أن بيدس بالذات، عرف الأدب الروائي الروسي عن كثب، وقدم العديد من الروايات الروسية مترجمة بتصرف في مجلته النفائس، أو في طبعات مستقلة. ضمن مفاهيم السياق التاريخي ذاته، نلاحظ أن بيدس يخلط بين القصة القصيرة، والحكاية، والخاطرة الوجدانية، والمقالة... لذلك فانه من الصعب العثور على قاسم مشترك بين هذه الأشكال، اذ أن عنصر الطول ــ كحد أدنى ــ يتذبذب من قطعة إلى أخرى... إلا أن الدارس لا يعدم قاسماً مشتركاً بينها، وهو في الموضوع وليس في الشكل، وقد أشار اليه المؤلف في تعريفه لهذه المجموعة، بأنها «مجموعة... في حقيقة الحياة». «حقيقة الحياة» هي المحور الأساس الذي دارت حوله المجموعة، أياً كانت الأشكال الفنية التي توختها، ولما كانت هذه الأشكال متعددة، تقترب حيناً من القصة وتبتعد حيناً آخر، يصبح الموضوع «حقيقة الحياة» هو المدخل الأوضح لدراسة المجموعة.

ما هي المحاور الموضوعية التي كانت محط اهتمام بيدس، ودارت ــ بالتالي ــ حولها مجموعته؟ في البداية، يلاحظ شغف بيدس بالتاريخ، لذلك فهو يختار العديد من موضوعات المجموعة من لقطات تاريخية، لتخدم غرضاً حياتياً ترمي اليه، أو لتقديم اللقطة التاريخية لذاتها، دون أن يقفل الخاتمة أمام امكانية اسقاط معاصر ــ في زمنه ــ لهذه اللقطة. فمن التاريخ اليوناني، استقى اطار القطع ــ القصص: «أين الحقيقة» و«آلهة الجمال» و«الصدى» و«محاورة بين الآلهة». ومن التاريخ الفرعوني: «الثور المقدس» و«المومياء». ومن التراث البوذي: «حجر الألماس». ومن التاريخ الفرنسي: «الأب». ومن التاريخ الايراني: «حجر الفلاسفة»، ومن التاريخ العربي ــ الإسلامي: «جنون الحب». وفي أكثر من مكان، يشير صراحة في الهامش الى الاطار التاريخي الذي استقى منه أحداث القصة؛ يقول عن «جنون الحب»: «بنيت هذه الرواية على حادث حقيقي وقع في